دور العلماء في ترشيد الحراك الشبابي

ورقة مقدمة لمؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي

مراكش – المملكة المغربية

2015/1/31–29

كتبها/ عبد الحي يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فبداية نطرح سؤالاً من هم العلماء؟ لا شك أن هذا الإطلاق يقصد به العلماء الربانيين الذين فقهوا عن الله مراده، وحفظوا حدوده؛ ولم يشتروا بآيات الله ثمناً قليلا، ويقيناً لا يدخل في هذا الحديث علماء السوء ممن هادنوا الطغيان فنطقوا بالباطل وشهدوا بالزور، وعملوا على تثبيط الهمم واكتساح العزائم، وأرادوا للناس أن يكونوا قابعين قانعين بالذل والهوان؛ علماء السوء نعني بهم أولئك الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها"[1]،وهذه الظاهرة ليست جديدة بل هي في كل زمان ومكان لا يخلو الأمر من علماء باعوا دينهم بدنيا غيرهم وصاروا {يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}[2] ولطالما حدثنا القران عن علماء بني إسرائيل الذين كانوا (يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)[3]. وقد قال عيسى بن مريم –عليه السلام– مصوراً حال أولئك وكيف أنهم يصدون عن سبيل الله بمعسول القول وسيء العمل: (مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر، وباطنها عظام الموتى"[4].

[1]- الغزالي –إحياء علوم الدين 73/1.
[2] سورة آل عمران/ 78
[3]- سورة البقرة:79.
[4]- الغزالي – إحياء علوم الدين 74/1.

ودور هؤلاء العلماء عظيم في زمان تتعاظم فيه صحوتهم فنلحظ رجوعاً إلى الدين يتمثل في كثرة السائلين عن أحكامه الراغبين في معرفة حلاله وحرامه، بل إن دورهم – عافاهم الله – لا يكاد يفوقه خطورة إلا دور الأمراء أصحاب السلطان، ولذا قرن بين الطائفتين في كثير من النصوص؛ حتى قال من قال من أهل التفسير[1] أن الأمراء والعلماء هم أولو الأمر الذين أمرنا بطاعتهم في قول ربنا جل جلاله {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[2] وفي الحديث "صنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء" وهذا الدور تعظم الحاجة إليه في توجيه الشباب خصوصاً؛ نظراً لما جبلوا عليه من حدة العاطفة وصدق التوجه مع الرغبة في الفعل، والناظر في أحوال المسلمين يجد المساجد – في بلادهم وفي غيرها – غاصة بهؤلاء الشباب، وهم رواد حلق العلم ومجالس الذكر، وهم الموجوعون مما وصل إليه حال الأمة من ضعف وترد، وهم الراغبون في بذل الأموال والأنفس رخيصة في سبيل الله والدين، وهم الساعون في الدعوة إلى الله والتبشير بدينه؛ رأيت ذلك منهم في بلاد الإسلام وبلاد الكفر؛ حتى إن الكثيرين منهم لتصدق في حقه البشارة النبوية "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله"[3] فكان من بينهم "وشاب نشأ في عبادة الله" والبشارة الأخرى "يعجب ربنا من شاب ليست له صبوة"[4] وأكثر شهداء المسلمين في ساحات الوغى وميادين الجهاد إنما هم من الشباب.

وقد أعادوا بمسيرتهم هذه – جزاهم الله خيرا – سيرة الشباب الصالحين من أمثال مصعب بن عمير وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد والبراء بن عازب ورافع

---

[1] نسب هذا القول ابن جرير الطبري في جامع البيان إلى أبي هريرة وجابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد بن جبر وابن أبي نجيح وعطاء بن السائب والحسن البصري وأبي العالية رحمهم الله تعالى. قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: وهو اختيار مالك رحمه الله، ونحوه قول الضحاك.أ.هـــــــــ

[2] سورة النساء/ 59

[3] رواه مالك والشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

[4] رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه

بن خديج ﷺ أجمعين، وحسب الشباب فخراً أن تكون طليعة رجال الصحوة المعاصرة من بينهم؛ فالحمد لله على نعمته ونسأل الله المزيد من فضله.

ولا ريب أن هذه المسيرة القاصدة إلى الله سبحانه تعترضها عقبات كئود وفتن سود تتمثل في جنوح فئام من هؤلاء الشباب إلى جانبي الإفراط أو التفريط، الغلو أو التقصير، ومردُّ ذلك إلى أسباب من أهمها:

1. ضعف الفهم في دين الله عز وجل؛ حيث تحرك بعضهم العواطف غير المصحوبة بالنظر الثاقب والأفق الواسع والبرهان الساطع

2- ضعف الصلة بالعلماء الربانيين الذين يحملون هذا الدين "ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين"[1] ويبينون للناس معالم الطريق

3- استعجال كثيرين منهم قطف الثمار دون فقه بسنن الله الكونية والشرعية القاضية بأن لكل أجل كتابا، وأن كل أمر بقدر مقدور، وأن واجب العبد الأخذ بالأسباب وتفويض النتائج إلى رب الأرباب جلَّ جلاله

4- واقع المسلمين المزري – حكاماً ومحكومين – والذي يحمل بعضهم على اليأس من تغيير مؤثر في هذا الواقع فيعمد إلى تصرفات قد تجرُّ البلاء عليه وعلى من معه

5- تصدُّر بعضهم للفتيا في النوازل العظيمة والأحداث العامة التي لها تعلق بالأمة كلها، مع ضعف التأهيل العلمي والبناء الفكري

وبإزاء ذلك فإنه يمكن للمشتغل بالدعوة إلى الله تعالى أن يحصر دور العلماء في ترشيد هذا الحراك الشبابي في نقاط أهمها:

[1] رواه البزار والطحاوي في شرح مشكل الآثار

أولاً: أن يعهد الشباب من هؤلاء العلماء إخلاصاً لدين الله عز وجل ورغبة في نشره وحرصاً على تبيان حقائقه وإذاعة أحكامه؛ فإنه لا يهلك الناس حتى يكون العلم سراً[1] كما قال العبد الصالح عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، ولا يتأتى ذلك إلا بإدراك أهل العلم يقيناً أنهم يقومون بمهمة عظيمة هي من فروض الكفايات في حق الأمة جميعها، وواجب متعين في حقهم {فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا لعلهم يحذرون}[2] وقبيح بالعالم أن ينصرف عنه الشباب لأنهم عهدوا منه الكسل في نشر العلم والتواني في بحث النوازل والانصراف عن مهمات القضايا، مع تبلد الحس وبرود الشعور إزاء ما يقع بأمة الإسلام من ظلم تنوء بحمله الجبال، وأقبح منه أن يعهدوا منه ميلاً مع أهواء ذوي السلطان وأهل المال؛ فيصدق في حقهم قول القائل:

بالملح تصلح ما تخشى تغيره فكيف بالملح إن حلت به الغير؟

وقول الآخر: يا علماء الدين يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد؟

ثانياً: السعي الدؤوب في نشر العلم وتجلية الحقائق الشرعية وتقوية الصلة بالشباب الناشئ، وذلك بكل وسيلة مشروعة متاحة مسموعة أو مرئية أو مقروءة، وبالاتصال المباشر في المساجد ودور العلم؛ حتى يصير العلماء مثابة لهم وأمناً، يفزعون إليهم ويسترشدون بآرائهم وينزلون على حكمهم، وهم واثقون أنهم عن الله يوقعون وبحكمه يخبرون، لا تزيغ بهم الأهواء ولا يلبسون الحق بالباطل، وقد قال نبي الله نوح عليه السلام مبيناً جهده الجهيد في هداية قومه {إني دعوت قومي ليلاً ونهارا. فلم يزدهم دعائي إلا فرارا. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا

---

[1]

[2] سورة التوبة/

واستكبروا استكبارا. ثم إني دعوتهم جهارا. ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا}[1] والقدوة في ذلك سلف صالحون من أمثال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي كان يدخل عليه من يسألون عن القرآن فيجيبهم، ثم يدخل عليه طلبة الحديث فيجدون ضالتهم، ثم يدخل عليه من يسألون عن الشعر وأيام العرب فلا يعدمون علماً نافعاً،[2] وهو الحبر البحر ترجمان القرآن، وهكذا أم المؤمنين عائشة ﵂ التي كان الأكابر من أصحاب مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض والأحكام ويتحاكمون إليها حين يختلفون في بعض المسائل[3]

ثالثاً: التواضع لهؤلاء الشباب والصبر على لأوائهم في حدة تظهر من بعضهم أو تعالم يطرأ على آخرين أو ميل مع الهوى قد يزيّنه لهم شياطين الإنس والجن، حتى تنجلي لهم الحقائق وتستبين لهم الأمور {وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين}[4] والقدوة في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كانت الأمة من إماء المدينة تأخذ بيده فيذهب معها حتى يقضي حاجتها، والذي كان يقبل على محدثه بوجهه، ويجلس مع أصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس حتى يظن جليسه أنه لا أحد أكرم عليه منه، والذي كان باذلاً وقته للناس يقضي لهم مصالحهم ويفض منازعاتهم ويحكم فيما شجر بينهم، ويسعى بالإصلاح،[5] والذي علمنا أن السعي في حاجة المسلم أحب إلى الله من الاعتكاف في المسجد شهرا[6]

رابعاً: الإحاطة علماً بالقضايا التي تؤرّق هؤلاء الشباب وتشغل بالهم وتقض مضاجعهم؛ والتي تختلف من بلد إلى بلد؛ فما يشغل الشباب في الجزيرة العربية قد لا يشغل أقرانهم

---

[1] سورة نوح/
[2] سير أعلام النبلاء
[3] سير أعلام النبلاء
[4] سورة الأنعام
[5] الشفا للقاضي عياض بن موسى
[6] رواه

في الشام والعراق مثلا، وما يكون هماً للشاب المسلم في أوروبا قد لا يكون كذلك للشاب في مصر، وليس محموداً أن تكون بلاد مغزوة بجيوش فكرية من الملاحدة الذين يثيرون الشبهات وينشرون الأباطيل بكل وسيلة متاحة، والعلماء مشغولون بالحرب في ميدان لا عدو فيه حين يكثرون من الحديث عن فرق تاريخية لا وجود لها في واقع الناس اليوم، بل عليهم أن يجهدوا أنفسهم في رد ذلك الباطل الماثل، وقل مثل ذلك في بلد تتعرض لخطر محدق الرافضة أو العلمنة أو الحداثة غير المنضبطة، والعلماء في غفلة عن هذا كله

خامساً: الحرص على بسط النظرة الشرعية بصورة جلية واضحة في قضايا ملحة تطرق أذهان الشباب بالليل والنهار؛ كمسائل الإيمان والكفر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفقه الجهاد وأحكام الدور والتعامل مع غير المسلمين؛ حتى لا يُترك الشباب نهباً لكل متحدث باسم الدين إن بعلم أو بغير علم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم منبهاً على ذلك "إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء؛ حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"[1]

سادساً: تقديم الأهم فالمهم من القضايا؛ سواء منها ما كان فكرياً أو فقهياً؛ ولا يتضح ذلك للعالم إلا بمخالطة هؤلاء الشباب ومعرفة ما يدور في أذهانهم وما يشغل سوحهم؛ ولرب عالم اشتغل زماناً بمسائل قلَّت الحاجة إليها وما عاد الناس – خاصة الشباب – يبحثون عنها، وقد علمنا أن الناس قد شُغلوا حيناً من الدهر بمسألة ترجمة القرآن إلى غير العربية، وحِل التصوير الفوتوغرافي والتلفزيوني أو حرمته، وسريان أحكام الربا في

[1] رواه البخاري

النقود الورقية أم لا؟ وحل شرب الشاي والقهوة إلى غير ذلك من القضايا التي ما عاد أحد يسأل عنها أو يهتم بتقريرها أو ذكر الخلاف فيها

سابعاً: أن يكون أهل العلم قدوة للشباب في الحماسة لدين الله عز وجل وبذل المهج والأرواح – فضلاً عن الأموال والأوقات – في الانتصار له والذب عنه، والجهر بكلمة الحق في وجه المبطلين مع حسن خلق وسلامة منطق وبعد عن الفحش والخنا

ثامناً: الحرص على تربيتهم تربية عملية على التسامح وتقبُّل الآخر وسعة الأفق والعلم بمواطن الخلاف التي وسعت المسلمين من قديم دون نكير على المخالف، وذلك بسعة صدر العالم حين ينقل إليه خلاف ما يفتي به أو يذيعه بين تلاميذه ومحبيه، وترفعه عن ذكر إخوانه أهل العلم بقالة السوء، مع التماس الأعذار لهم والحرص على نشر مناقبهم وإذاعة محاسنهم والتنويه بفضائلهم والدعاء لهم والترحم على من مات منهم، وكف اللسان عن تتبع عوراتهم وإشاعة زلاتهم

تاسعاً: تحذير الشباب عملياً من نابتة السوء التي أطلقت ألسنتها بالحديث في أعراض الدعاة إلى الله وعلماء الأمة – أحياء وأمواتا – والتي لا يكاد يخلو منها بلد ولا قطر، وقد تكون مدارة من قبل أجهزة الله أعلم بها؛ صداً عن سبيل الله ومكراً بأولياء الله، ويكون التحذير العملي بالإعراض عن هؤلاء وعدم الاشتغال بالرد عليهم حتى يتقرر في أذهان الشباب أن ذلك التطاول ليس إلا محض جهل وحديث لغو يراد منه صرف الناس عن الحق كما قال جل من قائل {وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين}[1] وقبيح بالعالم أن يكون همه المقعد المقيم الدفاع عن نفسه والذب عن عرضه؛ حتى إنه لتظلم الدنيا في عينيه إذا وجه إليه نقد أو تعرض لتطاول من حدث غر لا يؤبه له. وقد روى أهل السير أن واحداً من

[1] سورة العنكبوت

سلف هؤلاء دخل على مالك رحمه الله وقال له: يا أبا عبد الله أنت أحياناً تخطيء وأحياناً لا تصيب!! فقال مالك: ما زال الناس كذلك!! فلما خرج الرجل قال أصحاب مالك: إن الرجل قال كذا وكذا؛[1] فلم يأبه مالك رحمه الله لما قال ولم يتكدر صفوه، وبقي ﷺ كالطود الشامخ والجبل الأشم تشد إليه الرحال وتضرب إليه أكباد الإبل مع الذكر الحسن والسيرة العطرة ولسان الصدق في الآخرين، وما ضر السحاب نبح الكلاب

عاشراً: لفت انتباه الشباب إلى وجوب العناية بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار الصالحين؛ لأنها الزاد الأمثل في الطريق الطويل، وقد قال العليم الخبير جل جلاله {وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} ولا زال علماء الإسلام في القديم والحديث يبذلون جهودهم ويستفرغون وسعهم في تتبع أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وشمائله ومغازيه؛ حرصاً منهم على ربط الأمة المرحومة بتلك السيرة العطرة، وسعياً منهم لاستلهام الماض في إصلاح الحاضر واستشراف المستقبل، كما قال علي بن الحسين بن علي ﷺ "كنا نُعلَّم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نُعلَّم السورة من القرآن"[2] وما ذاك إلا حرصاً من أولئك الأسلاف ﷺ على تربية النشء على تلك المعاني العظيمة التي حوتها السيرة من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وإن كل أمة من الأمم لتحرص غاية الحرص على إحياء ذكر عظمائها وكبرائها، ونحن المسلمين نعتقد يقيناً أنه لا أعظمَ في البشر ولا أفضلَ ولا أكرمَ ولا أجلَّ من مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم؛ ومن بعده أصحابه رضوان الله عليهم، ولذلك عظمت العناية بتلك السيرة المباركة، فقد روي عن إسماعيل بن مُحَمَّد بن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال "كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا ويقول: يا بني هذه شرف

[1] سير أعلام النبلاء
[2] رواه الخطيب وابن عساكر

آبائكم فلا تضيعوا ذكرها"[1] وقد قال أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى: سيرة القوم أحب إليَّ من كثير من الفقه؛ لأنها أدب القوم[2]!!!

وهذا باب قد أعرض عنه كثير من الشباب واشتغلوا بمسائل العقيدة والفقه العملي؛ ظناً منهم أن السيرة ليست بتلك الأهمية العظيمة، ولربما قصر العلماء في لفت انتباههم لوجوب العناية بها والبحث فيها والغوص في معانيها، وحسبنا قول ربنا سبحانه وتعالى {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}[3].

حادي عشر: استعمال الشدة واللين كلٌ في موضعه؛ والأصل الرفق فما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه؛ لكن بعض الناس قد لا يصلحه إلا الشدة، وفي التهاون معه ضرر عظيم قد يتعدى شخصه ليصيب المجموع أو الجميع، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حين أنكر على أسامة ﷺ وهو حبه وابن حبه حين قتل الكافر بعدما قال: لا إله إلا الله،[4] وحين قال "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد"[5] وحين قال للسائل عن ضالة الإبل "مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر"[6] وقد ضرب عمر ﷺ شاباً أكثر من السؤال عن متشابه القرآن[7]، وهذا باب طويل جداً تكثر فيه الأمثلة، وقد قيل من قديم: قسا ليزدجروا ومن يكُ ذا حكمة فليقسُ أحياناً على من يرحم، وقال الآخر: ووضع الندا في موضع السيف في العلا مضر كوضع السيف في موضع الندا، وقيل: إذا قيل حلم فقل للحلم موضع وحلم الفتى في غير موضعه جهل.

---

[1] شرح المواهب 473/1
[2] رسالة المسترشدين
[3] سورة الأحزاب
[4]
[5]
[6]
[7]

وبعد: فإن كل منصف يدرك أن شباب الإسلام – في سوادهم الأعظم – يسيرون من خير إلى خير إن شاء الله، وهم في كل يوم تصقل الأحداث خبراتهم وتزيد في رصيد تجاربهم، ويجتنبون – بإذن الله – مزالق من سبقهم، وقد صارت صحوتهم عصية – بأمر الله – على تآمر أعدائهم ومكر مناوئيهم، لكن ذلك الخير لا يكون تمامه وكماله إلا بتوجيه ونصح العلماء فإنهم أهل البصيرة والتقى، وهم أصحاب الشريعة والفقه، والناس جميعاً بحاجة إليهم؛ فالله الله في خذلان الأمة والتقصير في تبصيرها بدين ربها جل جلاله، والله من وراء القصد وهو الموفق والمستعان.